مِنْ أَمْجَادِ الْجَزَائِرِ

(1962 - 1830)

سِلْسِلَة تَارِيخِيَّة ثَقَافِيَّة تَصْدُرُ عَنْ وِزَارَة الْمُجَاهِدِينَ

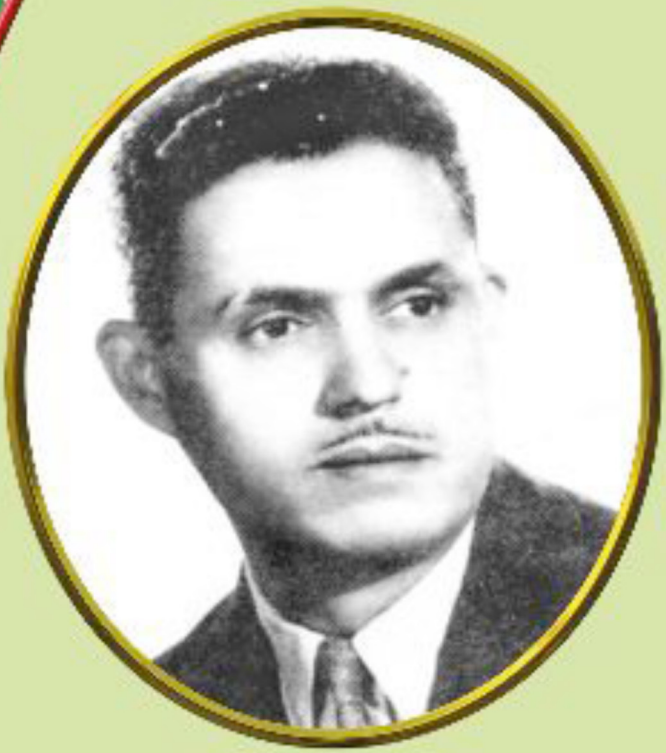

الشَّهِيد

عِيسَات إِيدِير

1959 - 1915

منشورات المتحف الوطني للمجاهد

تصدير

تصدر هذه السلسلة التاريخية المخصصة للشهداء الرموز الذين يزخر بهم تاريخ المقاومة والثورة التحريرية، لتنير أمام الأجيال ولاسيما الشباب معالم درب النضال والجهاد الذي شقه ملايين الشهداء الأبرار بدمائهم الزكية، وعبدوه بأجسادهم الطاهرة ليكون معبرا للجزائر ولشعبها إلى الحرية والاستقلال.

تعد هذه السلسلة مساهمة من وزارة المجاهدين في بناء الذاكرة الجماعية وإثرائها، تعزيزا للجهود التي ما فتئت الدولة الجزائرية تبذلها من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية، ودعم تواصل الأجيال وتلاحمها.

أرجو أن يجد الشباب الجزائري في هذه السلسلة ما يروي عطشه لمعرفة تاريخ بلاده وتضحيات شعبه خلال المقاومة والثورة التحريرية التي تعتبر مرحلة هامة في تاريخه المجيد.

محمد الشريف عباس

وزير المجاهدين

حقوق التأليف والنشر محفوظة للمتحف الوطني للمجاهد 2009

ر . د . م . ك : 978-9961-884-17-1
الإيداع القانوني : 2009-5826

المتحف الوطني للمجاهد

ص .ب 168 – المدنية – الجزائر
الهاتف : 00.213.021 . 66. 92. 08 – 65 . 45. 06
الفاكس : 00.213.021 . 66 . 91 . 54

البريد الإلكتروني : Email: mnm@museenat-moudjahid.dz

BP 168 EL - MADANIA - ALGER
TÉL : 00.213.021.66. 92.08-65.45.06
FAX:00.213.021.66.91.54

الشهيد

عيسات إيدير

1959 - 1915

فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، الْتَفَّ الأَطْفَالُ حَوْلَ جَدِّهِمْ كَالعَادَةِ لِلاسْتِمَاعِ إِلَى بَعْضِ حِكَايَاتِهِ الَّتِي تَعَوَّدَ أَنْ يَحْكِيَهَا لَهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ.

اعْتَدَلَ الجَدُّ فِي جَلْسَتِه وَسَوَّى عِمَامَتَهُ وَفَتَلَ شَوَارِبَهُ ثُمَّ قَالَ: سَتَكُونُ حِكَايَتِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ مُخْتَلِفَةً عَمَّا تَعَوَّدْتُ أَنْ أَمْتِّعَكُمْ بِهِ مِنْ حِكَايَاتٍ.

أَخَذَ الأَطْفَالُ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى مَا سَيَقُولُهُ الجَدُّ مُنْتَظِرِينَ الحِكَايَةَ الجَدِيدَةَ الَّتِي سَتَكُونُ -كَمَا قَالَ- مُخْتَلِفَةً عَنِ الحِكَايَاتِ الَّتِي كَانُوا يَسْمَعُونَهَا.

صَمَتَ الجَدُّ بُرْهَةً وَشَخَصَ بِبَصَرِه بَعِيداً كَمَنْ يَسْتَرْجِعُ ذِكْرَيَاتٍ مُؤْلِمَةً، ثُمَّ قَالَ:

سَتُفَاجَأونَ بِمَا سَتَسْمَعُونَهُ. إِنَّهَا قِصَّةٌ حَزِينَةٌ بَطَلُهَا رَجُلٌ وَطَنِيٌّ، عِشْتُ مَعَهُ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، وَتَقَاسَمْتُ مَعَهُ صُعُوبَةَ الحَيَاةِ، وَتَتَبَّعْتُ أَطْوَارَ مَأسَاتِه، وَصُدِمْتُ كَمَا صُدِمَ الكَثِيرُونَ مِنْ نِهَايَتِهِ المُؤْلِمَةِ.

وَلِكَيْ تَسْتَوْعِبُوا القِصَّةَ الَّتِي سَأَقُصُّهَا عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي أَرْوِيهَا لَكُمْ فِي شَكْلِ لُغْزٍ، وَيَبْقَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَجِدُوا حَلَّهُ.

قَالَ أَحْمَدُ:

هَاتِ مَا عِنْدَكَ.

قَالَ الجَدُّ:

وُلِدَ هَذَا الشَّهِيدُ فِي 17 جَوَان سَنَةَ 1915، فِي قَرْيَةِ (جَمْعَة صَهَارِيجِ) بِالقُرْبِ

مِنْ مَدِينَةِ تِيزِي وزو، وَنَشَأَ فِي وَسَطٍ فِلاَحِيّ مُتَوَاضِع. تَلَقَّى تَعْلِيمَهُ الابْتِدَائِي الفَرَنْسِي بِقَرْيَتِه، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى مَدِينَةِ تيزي وزّو. وَهُنَاكَ بَدَأَتْ مَوَاهِبُهُ وَمُيُولُهُ تَبْرُزُ أَمَامَ مُعَلِّمِيه وَأَقْرَانه. اشْتَهَرَ خَاصَّةً بِاحْتِجَاجَاتِه ضِدَّ المَيْزِ العُنْصُرِيّ الّذي كَانَ يَسْتَحْوِذُ عَلَى أَذْهَانِ التّلاَمِيذ، وَبَعْضِ الأَسَاتِذَةِ الفَرَنْسِيّينَ. وَاصَلَ دِرَاسَتَهُ حَتّى المَرْحَلَةِ التَّكْمِيلِيَّةِ إِلَى أَنْ أَجْبَرَ عَلَى تَرْكِ مَقَاعِدِ الدِّرَاسَةِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى الحَيَاةِ العَمَلِيَّةِ.

هُنَا تَوَقَّفَ الجَدُّ عَنِ الكَلاَمِ، وَنَظَرَ فِي عُيُونِ أَحْفَادِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ قَائِلاً:

أَعَرَفْتُمْ هَذَا الشَّهِيدَ البَطَلَ؟

قَالَ صَالِحٌ:

مَا قُلْتَهُ يَا جَدِّي يَنْطَبِقُ عَلَى الكَثِيرِ مِنَ الجَزَائِرِيِّينَ لاَسِيَّمَا الَّذِينَ سَنَحَتْ لَهُمْ الفُرْصَةُ لِلحُصُولِ عَلَى نَصِيبٍ مِنَ التَّعَلُّمِ؛ لأَنَّ أَغْلَبَهُمْ عَاشُوا مَحْرُومِينَ، وَعَانُوا مِنَ التَّمْيِيزِ العُنْصُرِي، وَانْقَطَعُوا عَنِ الدِّرَاسَةِ؛ إِمَّا لأَنَّ الْمُسْتَعْمِرَ مَنَعَهُمْ مِنْهَا حِينَ لاَحَظَ نُبُوغَهُمْ، وَإِمَّا لأَنَّ ظُرُوفَ أَوْلِيَائِهِمْ الاجْتِمَاعِيَّةَ القَاسِيَةَ أَجْبَرَتْهُمْ عَلَى تَرْكِهَا وَالبَحْثِ عَنِ العَمَلِ لإِعَانَتِهِمْ.

قَالَ أَحْمَدُ:

فَعْلاً، فَعْلاً، أَغْلَبُ أَبْنَاءِ الجَزَائِرِ مُنِعُوا مِنْ مُوَاصَلَةِ الدِّرَاسَةِ، فَزِدْنَا تَوْضِيحًا، لِنَتَمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ.

قَالَ الجَدُّ:

حَسَنًا، سَأزِيدُكُمْ تَوْضِيحًا.

مَا إنْ تَوَقَّفَ الشَّهِيدُ عَنِ الدِّرَاسَةِ حَتَّى تَحَصَّلَ عَلَى مَنْصِبِ عَمَلٍ؛ بَدَأَ يَشْتَغِلُ فِي وَرْشَةٍ صِنَاعِيَّةٍ تَابِعَةٍ لِلطَّيَرَانِ بِالجَزَائِرِ، فَاستَطَاعَ بِفَضْلِ ذَكَائِهِ الخَارِقِ وَنَشَاطِهِ وَحَيَوِيَّتِهِ أنْ يَرْتَقِيَ إِلَى رُتْبَةِ رَئِيسِ قِسْمِ المُرَاقَبَةِ الإِدَارِيَّةِ (المُحَاسَبَةِ)؛ فَاطَّلَعَ عَنْ كَثَبٍ عَلَى مَا كَانَ يُعَانِيهِ إِخْوَانُهُ مِنَ التَّمْيِيزِ فِي المُعَامَلَةِ وَالعَمَلِ وَالأَجْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَرَاحَ يَنْشُرُ الوَعْيَ بَيْنَ زُمَلَائِهِ مِنَ العُمَّالِ الجَزَائِرِيِّينَ، مِمَّا جَعَلَهُمْ يَنْتَخِبُونَهُ فِي اللَّجْنَةِ التَّنْفِيذِيَّةِ لِلعُمَّالِ، وَهِيَ لَجْنَةٌ كَانَتْ تَابِعَةً لِلنَّقَابَاتِ الفَرَنْسِيَّةِ. وَضِمْنَ هَذِهِ اللَّجْنَةِ وَجَّهَ عِنَايَتَهُ؛ لِلدِّفَاعِ عَنْ مَصَالِحِ العُمَّالِ الَّذِينَ

يَعْمَلُونَ مَعَهُ؛ لأَنَّهُ لاَحَظَ أَنَّ النَّقَابَات الفَرَنْسِيَّةَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَصَالِحِ الجَزَائِرِيّينَ بِقَدْرِ مَا تَهْتَمُّ بِمَصَالِحِ الأُورُوبِيّينَ، لأَنَّ أَغْلَبَ المُسَيِّرِينَ كَانُوا مِنْ أَصْلٍ أُورُوبِيّ.

تَوَقَّفَ الجَدُّ مِنْ جَدِيدٍ عَنِ الكَلاَمِ، وَالْتَفَتَ إِلَى أَحْفَادِهِ مُنْتَظِراً مِنْهُمْ الإِجَابَةَ.

ابْتَسَمَتْ زَيْنَبُ، ابْتِسَامَةَ الرِّضَا وَالإِحْسَاسِ بِالفَخْرِ، وَقَالَتْ:

مَا إِنْ بَدَأْتَ حَدِيثَكَ -يَا جَدِّي- عَنْ هَذَا الشَّهِيدِ البَطَلِ حَتَّى عَرَفْتُهُ.

قَالَ الجَدُّ:

وَلِمَ لَمْ تُصَرِّحِي بِذَلِكَ؟

قَالَتْ زَيْنَبُ:

اعْتَرَانِي نَوْعٌ مِنَ الشَّكِّ فِي البِدَايَةِ، فَفَضَّلْتُ التَّرَيُّثَ إِلَى أَنْ أَتَأَكَّدَ مِنْ هُوِيَّتِهِ.

قَالَ الجَدُّ:

وَهَلْ تَأَكَّدْتِ الآنَ؟

قَالَتْ زَيْنَبُ:

أَجَلْ، تَأَكَّدْتُ مِائَةً بِالمِائَة.

قَالَ الجَدُّ:

إِذَنْ مَنْ هُوَ؟

قَالَتْ زَيْنَبُ:

الشَّهِيدُ؛ هُوَ عِيسَاتْ إِيدِيرْ الَّذِي كَانَ يُفَكِّرُ مُنْذُ وَقْتٍ مُبَكِّرٍ فِي تَكْوِينِ تَنْظِيمٍ نَقَابِيٍّ جَزَائِرِيّ يُدَافِعُ عَنْ مَصَالِحِ العُمَّالِ

الجَزَائِرِيّينَ المَادِّيَّة وَالمَعْنَوِيَّة وَيُوَحِّدُهُمْ؛ فَأتيحَتْ لَهُ الفُرْصَةُ فِي نِطَاقِ الثَّوْرَةِ التَّحْرِيرِيَّةِ، دُونَ تَغْيِيرِ رَغْبَتِهِ فِي تَعْبِئَةِ العُمَّال، الّذينَ سَاهَمُوا فِي تَكْوِينِ الاتِّحَادِ العَامِّ لِلعُمَّالِ الجَزَائِرِيّينَ فِي 24 فِبرَاير 1956.

قَاطَعَهَا صَالِحٌ قَائِلاً:

لَقَدْ نَسِيتِ شَيْئًا هَامّا؟

قَالَتْ زَيْنَبُ:

وَمَا هُوَ؟

قَالَ صَالِحٌ:

قَبْلَ أنْ يُؤَسِّسَ الاتِّحَادَ الَّذِي ذَكَرتِه، تَعَرَّضَ الشَّهِيدُ لِضُغُوطَاتٍ وَاعْتِقَالاَتٍ مِنْ

قبل الشُّرْطَة الفَرَنْسيَّة. فَفي سَنَة 1951، دَاهَمَت الشُّرْطَةُ الفَرَنْسيَّةُ الوَرْشَةَ التي كَانَ يَعْمَلُ فيهَا، وَأَلْقَتْ عَلَيْه القَبْضَ مَعَ عَدَدٍ منَ العُمَّال الجَزَائريّينَ، ولَمْ يُطْلَقْ سَرَاحُهُ إلاَّ بَعْدَ تَحْقيقٍ طَويلٍ مَعَهُ دَامَ عدَّةَ أيَّامٍ. الْتَحَقَ بَعْدَ ذَلكَ بوَظيفَةٍ أخْرَى في أحَد صَنَاديق التَّأمين الاجْتمَاعي بالجَزَائر العَاصمَة.

بَدَتْ عَلاَمَاتُ الاطْمئْنَان وَالانْشرَاح عَلَى وَجْه الجَدِّ وَهُوَ يَقُولُ: "الآنَ تَأَكَّدْتُ أنَّكُمْ عَرَفْتُمْ البَطَلَ الشَّهيدَ "عيسَاتْ إيدير" أحَدَ مُؤَسّسي الاتّحَاد العَامّ للْعُمَّال الْجَزَائريّينَ سنة 1956.

ثمّ قال:

مِنْ أيْنَ لَكُمْ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتُ عَنِ الشَّهِيدِ؟

صَالِحٌ:

دَرَسْنَاهَا فِي المَدْرَسَة، وَ قَرَأنَا عَنْهَا فِي كُتُبِ التَّارِيخِ، وَلَكِنَّكَ -يَا جَدِّي- لَمْ تُحَدِّثْنَا عَنِ الأمْرِ المُحَيِّرِ فِي قِصَّتِهِ كَمَا وَعَدْتَنَا.

قَالَ الجَدُّ:

نَعَمْ، نَعَمْ، القِصَّةُ المُحَيِّرَةُ هِيَ المُحَاكَمَةُ الّتِي تَعَرَّضَ لَهَا، وَمَا تَلاَهَا مِنْ أحْدَاثٍ، وَالَّتِي مَا تَزَالُ مَشَاهِدُهَا رَاسِخَةً فِي ذَاكِرَتِي، تَتَرَاقَصُ أمَامَ نَاظِرِيَّ، رَغْمَ مُرُورِ سَنَوَاتٍ وَسَنَوَاتٍ عَلَى حُدُوثِهَا.

صَمَتَ الجَدُّ قَليلاً، وكَأنَّهُ يَسْتَرِدّ أنْفَاسَهُ، وَمَسَحَ العَرَقَ النَّاضِحَ مِنْ جَبِينِهِ رَغْمَ لَطَافَةِ الْجَوِّ، ثمّ وَاصَلَ الْحَدِيثَ قَائِلاً:

كُنْتُ وَقْتَئِذٍ فِي قَاعَةِ الْمَحْكَمَةِ جَالِسًا إِلَى جَانِبِ عَرَبٍ وَفَرَنْسِيّينَ؛ كَانَتْ نَظَرَاتُ الفَرَنْسِيّينَ تَنمّ عَنِ التَّشَفّي وَالْحِقْدِ الْكَامِنِ فِي نُفُوسِهِمْ. وَفَجْأَةً انْتَبَهَ الْجَمِيعُ، عِنْدَمَا جِيءَ بِعِيسَاتْ إِيدِيرْ مُكَبّلَ الْيَدَيْنِ، مُحَاطًا بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْحُرَّاسِ، لَكِنَّهُ كَانَ كَالطَّوْدِ الشَّامِخِ، رَغْمَ آثَارِ التَّعْذِيبِ الْبَادِيَةِ عَلَى وَجْهِهِ؛ لاَ أَدْرِي أَكَانَ يَتَظَاهَرُ بِذَلِكَ، حَتّى لاَ يَمْنَحَ الأَعْدَاءَ فُرْصَةَ التَّشَفّي، أَمْ إِنَّ إِيمَانَهُ الْقَوِيّ بِاللَّهِ وَبِعَدَالَةِ قَضِيّتِهِ هُمَا اللَّذَانِ أَعْطَيَاهُ قُوَّةَ التّحَمُّلِ.

بَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَتْ هَيْئَةُ الْمَحْكَمَة، وَبَدَأَت الْمُحَاكَمَةُ الَّتِي حَاوَلَ مُمَثّلُ النّيَابَة منْ خلاَلهَا إبْرَازَ "عيسَاتْ إيديرْ" عَلَى أَنَّهُ مُجْرِمٌ خَطِيرٌ، إذْ مَا إنْ أحَالَ إليه رَئِيسُ الْجَلْسَة الكَلِمَةَ حَتّى قَالَ:

سَيّدي الرَّئيسْ، تَعْرِفُونَ أنّ لِيَ بَاعًا طَوِيلاً فِي سِلْكِ العَدَالَة، وَأنِّي رَافَعْتُ فِي عَشَرَاتِ بَلْ مئَات القَضَايَا الشَّائكَة، بَلِ الْخَطِيرَة. وكُنْتُ فِي أغْلَبِ الأحْيَانِ أَؤَدِّي عَمَلِي بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ؛ لَكنّي الآنَ، وَالآنَ بِالذَّات، وَفِي هَذه الْقَضيَّة أَجِدُ صُعُوبَةً فِي الْقِيَامِ بِذَلِكَ، بَلْ أحِسّ بِأنّنِي فِي وَرْطَةٍ حَقّا.

أتَدْرُونَ لِمَاذَا يَا سيّدي؟

وَدُونَ أنْ يَـنْتَـظِـرَ إجَابَـةً، وَاصَلَ حَـدِيـثَه قَائِلاً:

لأنّي أمَـامَ مُـجْـرِمٍ خَـطِـيـرٍ، أجَلْ خَـطِـيـرٍ لِدَرَجَةٍ قَدْ لاَ يَتَصَوَّرُهَا العَقْلُ.

سَأَلَهُ الرَئِيسُ قَائِلاً:

أهُـو أخْـطَـرُ مِنْ آلاَفِ الـفَلاَّقَـةِ الّـذِينَ حَـاكَمْنَاهُمْ مِنْ قَـبْلُ؟

رَدَّ مُمَثِّلُ النِّيَابَةِ قَائِلاً:

أرَى أنّ هَذَا "الفَلاَّق" هُوَ أخْطَرُهُمْ، أتَدْرِي لِمَ يَا سَيِّدِي؟

سَيِّدي الرَئِيس، الْمُجْرِمُ قَدْ يَقْتُلُ شَخْصًا أو مَـجْمُوعَـةَ أشْخَاصٍ، لَـكنَّ هَذَا الـوَاقِفَ خَـلْفَ القُـضْـبَـانِ أمَـامَـكُمْ أرَادَ أنْ يَـقْـتَـلِعَ

الشَّجَـرَةَ مِنْ جُـذُورِهَا.

تَسَاءَلَ الرَئِيسُ:

كَيْفَ؟

رَدّ مُمَثِّلُ النِّيَابَةِ قَائِلاً:

مُنْذُ أنْ وَطِئَتْ أقْدَامُنَا هَذِهِ الأرْضَ، وَنَحْنُ نُوَاجِهُ مُقَاوَمَاتٍ مُسَلَّحَةً، كَتِلْكَ الَّتِي قَامَ بِهَا الأمِيرُ عَبْدُ القَادِرِ، وَأحْمَدُ بَايْ، وَالْحَاجُّ الْمُقْرَانِي، وَغَيْرُهُمْ، وَقَدْ تَمَكَّنَّا مِنْ قَمْعِهَا جَمِيعًا؛ لَكِنَّ هَذَا الْمُجْرِمَ الخَطِيرَ، الْوَاقِفَ أمَامَكُمْ اخْتَارَ أسْلُوبًا آخَرَ لِمُقَاوَمَتِنَا، أسْلُوبًا لاَ يَعْتَمِدُ عَلَى البُنْدُقِيَّةِ وَالرَّشَّاشِ، بَلْ عَلَى الْكَلِمَةِ وَالحُجَّةِ وَالإقْنَاعِ؛ وَتَجْنِيدِ العُمَّالِ لِيَقُومُوا بِالتَّخْرِيبِ وَالتَّدْمِيرِ. فَبَدَلَ أنْ يَقْتُلَ

شَخْصًا أوْ عِدَّةَ أشْخَاصٍ، يُغْرِي العُمَّالَ لِيَقْتُلُوا الآلاَفَ، أَلَمْ أقُلْ لَكَ يَا سَيِّدِي، إنّهُ أَخْطَرُ مِمّا تَتَصَوَّرُونَ؟

فَهُوَ لَمْ يَكْتَفِ بِالدِّفَاعِ عَنِ العُمَّالِ "الأهَالِي" ضِمْنَ النَّقَابَاتِ الفَرَنْسِيَّةِ، بَلِ انْضَمَّ إِلَى المُنَظَّمَةِ الإجْرَامِيَّةِ الَّتِي قَادَتْ حَرَكَةَ التَمَرُّدِ وَالعِصْيَانِ ضِدّنَا، الحَرْبَ الَّتِي نَكْتَوِي الآنَ بِنَارِهَا، وَهِيَ مَا يُسَمَّى عِنْدَهُمْ "جَبْهَةَ التحرير الوطني".

وَبَعْدَ هَذَا الانْضِمَامِ اشْتَرَكَ مَعَ جَمَاعَةٍ أخْرَى مِنَ العُصَاةِ، لِتَأسِيسِ نَقَابَةٍ تُدْعَى "الاتِّحَادَ العَامّ لِلْعُمَّالِ الجَزَائِرِيّين"، الَّتِي انْتُخِبَ أمِينًا عَامّا لَهَا فِي 24 فِيفْرِي 1956. وَطَبْعًا كَمَا تَعْلَمُونَ، فَهَذِهِ النّقَابَةُ

شَكّلَتْ خَطَراً جَسيمًا عَلَيْنَا نَحْنُ الفَرَنْسِيِّينَ، خَاصَّةً بَعْدَ قِيَامِ أعْضَائِهَا بِالانْضِمَامِ إِلَى الاتِّحَادِيَّةِ العَالَمِيَّةِ لِلْنّقَابَاتِ الحُرَّةِ، الَّتِي وَجَدُوا فِيهَا مِنْبَراً لِتَبْلِيغِ صَوْتِ نَقَابَةِ العُصَاةِ إِلَى الرَّأيِ العَامِّ العَالَمِي؛ لِذَا لَمْ أكُنْ مُخْطِئًا حِينَ وَصَفْتُهُ بِالْمُجْرِمِ الْخَطِيرِ.

صَمَتَ الشَّيْخُ قَلِيلاً، وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِ التَّأثُّرُ الشَّدِيدُ، كَمَنْ فَقَدَ عَزِيزاً عَلَيْهِ، فَسَأَلَهُ أحْمَدُ قَائِلاً:

وكَيْفَ كَانَ رَدّ المَحْكَمَةِ؟

رَدَّ الجَدُّ قَائِلاً:

لَقَدْ حَكَمَتِ الْمَحْكَمَةُ بِبَرَاءتِه، لأنّ اعْتِقَالَهُ كَانَ قَدْ أثَارَ مَوْجَةً مِنَ السُّخْطِ

العَالَمِي فَعَيّنَتْ لَهُ "الْجَامعَةُ العَالَميَّةُ لِلنَّقَابَاتِ الحُرّة" مُحَاميًا قَديراً لِلدِّفَاعِ عَنْهُ، حَيْثُ تَمَكَّنَ بِبَرَاعَةٍ فَائِقَةٍ، وَحُجَجٍ وَأدلّةٍ دَامِغَةٍ مِنْ إثْبَاتِ بَرَاءَتِه، وَلَمْ يَتْرُكْ لِلْمَحْكَمَةِ حُجَّةً قَانُونِيَّةً وَاحِدَةً تَرْتَكِزُ عَلَيْهَا لِإِدَانَتِهِ، فَاضْطُرَّتْ إِلَى إعْلاَنِ بَرَاءتِهِ.

بَدَتْ عَلاَمَاتُ الارْتِيَاحِ عَلَى وَجْهِ زَيْنَبَ فَأسْرَعَتْ تَقُولُ:

إذَنْ، الْمَحْكَمَةُ بَرَّأتْهُ وأطْلَقَ سَرَاحُه.

تَنَهّد الشَّيْخُ مِنْ أعْمَاقِه، وَمَسَحَ دَمْعَةً انْحَدَرَتْ عَلَى خَدِّه رَغْمًا عَنْهُ، وَقَالَ بِنَبْرَةٍ حَزِينَةٍ، بَالِغَةِ الْحُزْنِ:

كَلاَّ، يَا ابْنَتِي، فَفِي الوَقْتِ الّذِي كَانَ

أَبْنَاؤُهُ وَزَوجَتُهُ يَنْتَظِرُونَ عَوْدَتَه عَلَى أحَرَّ مِنَ الْجَمْرِ، بَعْدَ غِيَابٍ دَامَ أكْثَرَ مِنْ ثَلاَث سَنَوَاتٍ، تَفَاجَأوا، كَمَا تَفَاجَأنَا جَمِيعًا، بِنَبَأ نَقْلِه إِلَى مَرْكَزٍ عَسْكَرِيٍّ بِالْقُرْبِ مِنْ مُسْتَشْفَى "بئْرَ طرَارِيَة" بِحَيّ الأبْيَارِ، حَيْثُ تَعَرّضَ لأبْشَعِ وَأقْسَى أنْوَاعِ التَّعْذِيبِ، إِلَى أنْ خَارَتْ قُوَاهُ، فَنُقِلَ إِلَى الْمُسْتَشْفَى العَسْكَرِي بِبَاب الْوَادِي.

قَالَ صَالح:

وَبِأيّ مَنْطِقٍ ظَلَّ مَسْجُونًا وَهُو بَرِيءٌ، وَقَدْ أكّدَت الْمَحْكَمَةُ الاسْتِعْمَارِيَّةُ بَرَاءَتَهُ رَغْمَ تَحَيُّزِهَا الْمَعْرُوفِ.

أجَابَ الشَّيْخُ قَائِلاً:

ظَلَّ فِي السِّجْنِ رَغْمَ مَا ذكَرْتِ، نَتِيجَةَ الغَطْرَسَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْجَبَرُوتِ.

ثُمَّ اعْتَدَلَ فِي جَلْسَتِه، وَالْتَفَتَ بِوَجْهِهِ حَتّى لاَ يَرَى الْأَطْفَالُ شِدَّةَ تَأَثُّرِهِ وَقَالَ:

بَعْدَهَا بِأيّام، وبِالتّحْدِيدِ يَوْم 26 جويلية 1959، فَارَقَ الْحَيَاةَ فِي ظُرُوفٍ غَامِضَةٍ وَلِسَانُ حَالِهِ يُرَدِّدُ "كُلُّ شَيْءٍ يَهُونُ مِنْ أجْلِكَ يَا وَطَنِي".

المجد والخلود لشهدائنا الأبرار